بمناسبة صدور طبعة جديدة «لديوان الرافعي»

وما يزال شعر الرافعي يحتاج إلى تحقيق

بقلم : د . حلمي القاعود
مصر

في عام ١٩٨٧م، أسهمت مع زملائي في جامعة طنطا، في إقامة أول مؤتمر علمي عن عملاق العربية في العصر الحديث «مصطفى صادق الرافعي» (١٨٨٠-١٩٣٧)، على مدى ثلاثة أيام وشارك في هذا المؤتمر نخبة كبيرة من الأدباء والعلماء على امتداد العالم العربي، وألقيت فيه مجموعة كبيرة من الأبحاث التي دارت حول الرافعي وجوانب أدبه المتعددة، كما أثيرت قضايا عديدة امتدت إلى الصحافة وأجهزة الإعلام.

وأتيح لهيئة المؤتمر أن تعثر على نسخة من ديوان الرافعي التي نشرها «محمد كامل الرافعي» في ثلاثة أجزاء، قدم لها، وقام بشرح مناسبات بعض القصائد، مع التعليق على بعضها وشرح بعضها الآخر، في إسهاب أو إيجاز، وفقا لرؤية ذاتية قامت أساسا على الاحتفاء بالشاعر وشعره .

وبعد سنوات، تفضل صديقي الدكتور «محمد أبو بكر حميد» وأهداني نسخة من شعر مجموع للرافعي بعنوان «الأغاريد» تضم الأناشيد والقصائد القصيرة التي تشبهها، وكانت من جمع وتحقيق الأديب العراقي « مصطفى نعمان البدري» أول من كتب رسالة علمية عن الرافعي فيما أعلم، وقد قابلته في القاهرة فترة السبعينات، وهو من عائلة عراقية تحب الرافعي وتحتفي به، وقد سماه أبوه «مصطفى» تيمنا باسم أديبنا الكبير .

عزمت حينئذ أن أكمل المشوار، وأسعى إلى تحقيق شعر الرافعي من خلال مراجعة الدوريات الأدبية وغيرها التي صدرت منذ مطلع القرن العشرين حتى وفاة الرافعي، لأرى ما نشر فيها من شعره، وأقارنه بما نشره محمد كامل الرافعي ومصطفى البدري، وأضيف ما لم ينشر إلى التحقيق المقترح أو المنتظر .

بيد أن مشاغلي العديدة لم تترك لي فرصة البدء في هذا العمل، حتى فوجئت بتحقيق جديد أصدرته المكتبة العصرية (صيدا - بيروت) عام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، في طبعة فاخرة أعدها الدكتور «ياسين الأيوبي» الذي سبق اسمه بعبارة «حققه وشرحه وقدم له » !

في البداية كانت فرحتي كبيرة، لأن هناك من تفرغ للمهمة الكبيرة، وأظهر ديوان الرافعي كاملا فيما تصورت، وحين اطلعت على الديوان والدراسة التي تسبقه تراجعت فرحتي، بل تلاشت، وحل مكانها حزن كظيم، فقد وجدت الديوان مجرد إعادة لنشر ما طبعه محمد كامل الرافعي دون زيادة أو نقصان، فضلا عن رؤية حادة وقاسية لم تبرز قيمة شعر الرافعي أو شاعريته، بقدر ما أجهدت نفسها في تتبع هنات الرافعي الشعرية من خلال فصل كامل عنوانه: « مسيرة التعثر الشعري» وللقارئ الكريم أن يتأمل لفظة مسيرة ودلالاتها وإيحاءاتها إذا أضيف إليها التعثر والسقوط أو الضلال !

من حق أي دارس أو باحث أو محقق، أن يذهب المذهب الذي يريد، ويرى الرأي الذي يعتقد، ولكن هناك أصولا وأسسا وقواعد منهجية لإبداء الرأي والحكم . لست من الذين يقدسون الكاتب المحبوب أو الأديب المفضل، فهو في البداية والنهاية إنسان، ينسحب عليه ما ينسحب على الإنسان من كمال ونقصان، ومد وجزر، ولا يوجد مخلوق - أيا كان - بلغ حد الكمال، فالكمال لله وحده، والعصمة لنبيه ﷺ .

يثير الأيوبي مجموعة من النقاط خاصة بتحقيقه ودراسته، نوافقه على بعضها، ونختلف معه حول بعضها الآخر .

النقطة الأولى تتعلق بالتحقيق الذي قام به أسامة محمد السيد، تحت عنوان « إيوان الألمعي في شرح ديوان مصطفى صادق الرافعي » وصدر عن مؤسسة الكتب الثقافية في بيروت عام ١٩٩٣، وهذا العمل يضم جزأين فقط من ديوان الرافعي دون الجزء الثالث، وأجرى ناشر العمل تغييرا وتبديلا ما بين ألفاظ مفردة وجمل، وشطور شعرية وأبيات كثيرة في القصيدة الواحدة، وصولا إلى قصائد ومقطعات بكاملها، لم يرد لها ذكر في هذا العمل، مما يمثل عدوانا بشعا على شعر الرافعي، وخروجا شنيعا على أصول التحقيق والنشر، وتجاوزا فاضحا للأمانة العلمية التي تفرض الالتزام بالنص أيا كانت وجهة نظر ناشره .. وقد أورد الأيوبي نماذج عديدة للتغيير والتبديل والحذف الذي قام به الرجل، ومنها مثلا حذف قصيدة المديح التي مدح بها الرافعي الإمام محمد عبده :

مولاي أمسى الدين مما بدلوا

فيه كمرقعة من الأديـــان

لقد انطلق صاحب هذه النشرة من رؤية فقهية ضيقة الأفق، جرمت «الرافعي دينيا » لموقفه من بعض الناس أو إعادة بعض الصور الشعرية، وهو ما دفعه إلى حذف نصف الديوان تقريبا، وتقديم نصفه الآخر في صورة مشوهة!

نحن مع «الأيوبي» في موقفه من نشرة « أسامة محمد السيد » حرصا على الأمانة العلمية التي تقضي بتقديم النص كما هو، مع إعطاء الحق للناشر أن يعلق بما يشاء وفق رؤية موضوعية تتفق مع المنهج العلمي وأصوله .

وهذا يقودنا إلى **النقطة الثانية** وتخص «الأيوبي» الذي سمح لنفسه أن يضع صفة التحقيق على نشرته، مع أنه لم يقدم جديدا ذا قيمة يضاف إلى ما قام به «محمد كامل الرافعي»، من نشر الأجزاء الثلاثة في مطلع القرن على النحو التالي:

الجزء الأول : المطبعة العمومية بمصر ١٣١٩-١٣٢٠هـ (١٩٠٢م)، (١٥٤ صفحة) .

الجزء الثاني : مطبعة الجامعة بالإسكندرية ١٣٢٢هـ ١٩٠٤م (١٢٥ صفحة) .

الجزء الثالث : مطبعة الأخبار بالفجالة بمصر ١٣٢٣هـ، ١٩٠٥م (١٥١ صفحة) .

وإعادة نشر هذا الأجزاء بمعرفة «الأيوبي » لا يمثل تحقيقا ولا إضافة، حتى لو زعم الرجل أنه «كابد كل المكابدة» للتحقق من سلامة القصائد، والأبيات، والألفاظ، التي اشتمل عليها الديوان بطبعتيه المصرية (محمد كامل الرافعي) والبيروتية، (أسامة محمد السيد) .

فالطبعة المصرية هي طبعة الرافعي الشاعر بحق، فقد نشرت في شبابه، وخرجت على يديه حتى لو كان شقيقه محمد كامل الرافعي هو شارحها والمعلق عليها، وهي تنفي جملة وتفصيلا الطبعة البيروتية التي تعرضت للعدوان، ومع ذلك فالأيوبي يقدم لنا جهده الذي أضافه متمثلا في:

١- تغيير بعض عناوين القصائد ومقدماتها، حين يجد بعداً عن موضوع الشعر أو عدم الوفاء بالعنوان الصحيح (؟!).

٢- اختصار شروح محمد الرافعي لطولها وإسهابها، أو لبعدها عن جوهر الشعر المشروح.

٣- بسط القول في التقديمات للنصوص الشعرية التي لم يقدم لها، فضلا عن وضع عناوين قصائد الديوان بأجزائه الثلاثة بصورة شبه تامة .

٤ - تذييل الحواشي للنصوص الشعرية بشروح لغوية وبعض النقود اللغوية والبلاغية والأسلوبية، مما كانت (الملكة النقدية) تلحظه في المتن وترى (ضرورة) إثباته هنا وهناك!

وأعتقد أن هذا الجهد في مجمله يحسب على «الأيوبي »لا له، فهو ينشر نصا لشاعر وشارح يجب أن يتقيد به ويلتزم بتقديم كل ما ورد فيه، ثم له بعدئذ أن يعلق عليه بما يشاء وفق المعايير العلمية والمنهجية، ولكنه قارف ما فعله «أسامة محمد السيد» وخاصة فيما يتعلق بشروح وتعليقات «محمد الرافعي» وسمح لنفسه بتغيير بعض العناوين، وهو ما لا يجوز، لأن صاحب الديوان هو الذي وضع العناوين، ولا يعنينا إن كانت قريبة من موضوع الشعر أو بعيدة عنه، فتغيير العنوان يسمح بتغيير الأبيات وتبديلها وتعديلها، وقد اتفقنا على أن ذلك لا يجوز .. والأمر كذلك بالنسبة لشروح وتعليقات «محمد الرافعي » يجب أن نطلع عليها كما هي، سواء كانت متعلقة بالقصيدة أو بعيدة عنها .

لقد بذل محمد الرافعي جهدا كبيرا وحقيقيا في شرح ديوان الرافعي، وقد أنبأنا « الأيوبي» أنه اختصر شروحه وأضاف من عنده شروحا لغوية ونقدية، وهذا يقودنا إلى **النقطة الثالثة** مما سماه مسيرة التعثر الشعري، وأفرد له نصف الفصل الثاني في مقدمته البحثية، فضلا عما بثه من عثرات موهومة على امتداد هوامش الديوان . لقد حصر هذه العثرات تحت عناوين: نثرية النظم، المغالاة والتطرف، التعقيد اللفظي والتباس المعنى، الخلل العروضي، الخلل اللغوي، ويحتاج كل عنوان من هذه العناوين إلى مناقشة مستفيضة،

لأنها في أحسن الأحوال وجهة نظر يعبر عنها قارئ لا يعجبه شعر الرافعي، ومع ذلك حققه، كما يزعم، وقدمه إلى الناس من خلال ذم وقدح وإساءة تقوم على ذوق شخصي، وتوحي للقارئ العادي أن كل شعر الرافعي نثر منظوم نشأ عن ذاتية مفرطة يتشبث فيها الشاعر بكل ما يصدر عنه من كلام منظوم »، أو هو تعقيد في الكلام والتباس بسبب فجاجة(!) التجربة الشعرية وهشاشة المعاناة الذاتية، أو لعدم التمرس الطويل في التعبير عن أغراض بعيدة عن دائرة الواقع، أو يمكن رده إلى شعور دفين في قلب الشاعر أنه قادر على ركوب أي موجة من أمواج التركيب الشعري، أضف إلى ذلك ما ساقه الأيوبي في مجال الخلل العروضي واللغوي ليبين عن أخطاء فادحة منسوبة إلى الرافعي وشعره، يراها مما لا يغتفر له، مع أنها قابلة للتأويل أو الجواز عروضيا ولغويا ومنها :

(....) فإن تعط طفلك للخادمين
فما زدت إلا عديد الخدم

ويرى أن الرافعي حذف ياء المخاطبة من فعل تعطين المجزومة بإن الشرطية، فعلا للشرط، للضرورة الشعرية .. وهذا - يقول الأيوبي - خطأ بين، غير مغفور، فالجواز الشعري لا يسمح بخطأ نحوي من هذا النوع ! ولو أن الرجل الذي يدعي أنه تعب وأجهد نفسه في تصحيح الأبيات ومراجعتها وقرأ البيت على هذا النحو:

(....) فإن يُعْطَ طفلك للخادمين .... إلخ .

لعرف أن المسألة لا تستدعي اتهام الرافعي بالوقوع في خطأ لا يغتفر . ومنها :

ما جاء في مقطع نوني من بيتين اثنين، يذكر فيهما غدر الهوى والخمر معا:

رأيت الهوى والخمر سيَّين غدرة
وليسا على قلبي الحزين بسيَّين
إذا أتوارى يطلبان فضيحتي
فتظهر في وجهي ويظهر في عيني

الخطأ اللغوي - كما يقول الأيوبي - في دخول «إذا» الشرطية غير الجازمة على مضارع، وحقه إدخال إن الشرطية مكانها، لكنه عدل إلى «إذا» ليستقيم له (النظم) الشعري المؤاتي .

وينقل عن الشيخ «مصطفى الغلاييني » ضرورة وجوب دخول «إذا» على الماضي لأنها تفيد التحقيق، بعكس إن التي تفيد الشك والإبهام.

ويعرف طلاب اللغة العربية أن «إذا» الشرطية غير الجازمة يجوز دخولها على المضارع، وهو نفسه يقول : وقد جوز بعضهم - نقلا عن ابن هشام في « مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» دخول إذا على المضارع في حال الظرفية للمستقبل، وتضمينها معنى الشرط، كقوله تعالى : ﴿ **فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون** ﴾ (الروم : ٤٨) .

فإذا كان دخول «إذا» على المضارع جائزا فلماذا هذا التهويل في استعراض « مسيرة التعثر الشعري » للرافعي؟ ويمكن قول ذلك في كثير من الأمثلة التي أوردها «الأيوبي » ليقدم لنا «الرافعي» متمردا على اللغة، أو ضاربا بالقياس عرض الحائط، ولكننا نسأل: أليس كل الشعراء أو معظمهم لديه مثل هذه الهنات؟

لقد عالج «عمر الدسوقي» مثلا، شعر البارودي، فجلاه، وقدم لنا صور تأثره بالقدماء، وما صنعه خاصا به، وشكل جديدا لديه، وفي النهاية سجل «الهنات» التي وردت في شعره ولكنه لم يهول من أمرها ويجعلها « مسيرة تعثر شعري» كما فعل الأيوبي .

وهذا يقودنا إلى **النقطة الرابعة**، وهي تتعلق بجلاء شاعرية الرافعي وقيمته الشعرية حتى سن الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين، مع أنه عاش قرابة الستين عاما، وأنتج تراثا أدبيا وشعريا يستحق الالتفات والاحتفاء .

إن «الأيوبي» لم يسع إلى جلاء شاعرية الرافعي وقيمته الشعرية، ولكنه اكتفى بالحديث عن المادة الشعرية : نسيجها وإطارها البلاغي العام، من خلال توقفه عند «التشبيه» والمدى الذي بلغه التشبيه في ديوان الرافعي، وتحدث عن نمطين من أنماطه : نمط تقليدي متأصل في تربة الشعر العربي، وآخر متجدد على درجة ملحوظة من الإبداع.

وما أظن شاعرية الرافعي تقف عند التشبيه بنمطية، ولكنها – فيما أعتقد – تتجاوز ذلك إلى أبعاد أخرى يعبر فيها «الأيوبي»، سواء ما يتعلق بالمضمون أو التشكيل أو البناء، وفي إطار العصر الذي عاشه الرافعي، وبالمقارنة مع نظرائه وأشباهه، ولكن الرجل آثر أن يقنعنا بتهالك الرافعي على التشبيه إلى درجة الافتعال غالبا .

والحق أن ظاهرة التشبيه عند الرافعي تحتاج إلى دراسة علمية مستقلة تكشف قدرة هذا الرجل على تدوير شعره استجابة لهذه الظاهرة التي يبدو أنه انفرد بها دون جيله، ولم تتوقف عند حدود شعره المنظوم، بل امتدت إلى شعره المنثور في حديث القمر، ورسائل الأحزان والسحاب الأحمر، وأوراق الورد، وكتاب المساكين، والعديد من فصول «وحي القلم».

وكما تطلب شاعرية الرافعي في المنظوم فإنها تطلب بإلحاح في المنثور، وهو ما فطن إليه بعض اللصوص من كبار «أدعياء الحداثة» في بلادنا العربية، فسرقوا كتاباته ونسبوها إلى أنفسهم بعد شيء من التغيير القليل، ومع ذلك اتهموه بالاتباعية والتقليدية والسلفية!

كنت أتمنى أن يتوقف الأيوبي عند الشاعرية النثرية للرافعي بوصفها امتدادا لشاعرية الناظم الكبير الذي لا يعترف بالشعر المنثور، مع أنه قاله وقدمه وأغدق في عطائه .

ويقودنا كل ما سبق إلى **النقطة الخامسة** التي أود أن أختم بها هذه السطور فقد وصف الأيوبي آثار الرافعي المتنوعة بأنها حصاد ثر، وقطوف شهية ترضي الأذواق، وتغني النفوس، وتزرع فيها نوازع البحث عن حقائق الحياة ودقائق العصر، أو توقظ فيها الحنين إلى معانقة الشرفات المطلة على السفوح المترامية الأطراف، المتناهية الألق.

وهذا كلام طيب من رجل بدا كأنه ضد الرافعي من خلال « مسيرة التعثر الشعري» و «الذاتية المفرطة»، وكنت أتمنى أن يكون إنصافه للرافعي شاملا من خلال الظروف والسياقات التي عاش فيها، وخاصة في ظل «الغلو العلماني» الذي ساد الحياة الأدبية والثقافية، ضد الإسلام والحضارة الإسلامية، لحساب الثقافة الاستعمارية الغازية التي قللت من شأن الإسلاميين وهمشتهم ورفعت الأقل منهم شأنا بسبب ميولهم غير الإسلامية .

يبقى القول: إن ديوان الرافعي يحتاج إلى تحقيق لا يتوقف عند حدود الأجزاء الثلاثة التي نشرها محمد كامل الرافعي في مطلع القرن العشرين، فقد علمت مؤخرا أن إحدى المكتبات في المنصورة، قد أعادت نشره في مجلد واحد، وإن كنت لم أطلع عليه، وهو ما يعني أن هذه النشرة تكرار لنشرة الأيوبي، الذي لن أتهمه بالذاتية المفرطة أو كما اتهم الرافعي بسمة «التعظيم الذاتي» حين تحدث عن «معالم صنيعي في هذا الديوان» أو الجهد « الذي قمت به في صنيعي الأدبي» أو غير ذلك من حديث عن النفس يأباه العلماء المتواضعون ..

إن ما آمله حقا، هو البحث عن أشعار أخرى لم تنشر في الأجزاء الثلاثة أو الأغاريد للرافعي، كما أتمنى دراسة تبرز شاعرية الرجل في إطار زمنه وجيله، وتتحدث عن إيجابيات شعره وسلبياته في حدود علمية ومنهجية، لا تجعل مسيرته انطلاقا ولا تعثرا . ■